الحلقة الثانية

كسر رؤوسنا ولم يحطمها!

في صالون العقاد: كانت لنا أيام

أنيس منصور

هل كانت الدهشة هي التي تحرك كل حواسي؟

هل هي الدهشة التي قال عنها أستاذنا أرسطو. إنها بداية المعرفة؟.. فالإنسان يندهش لما يراه ويسمعه ويحاول أن يفهم. والذي لا يندهش لما يراه ويسمعه.. فهو ليس هنا وليس هناك.. إنه غائب عن الدنيا.. أو الدنيا قد غابت عنه..

لم تته هذه الدهشة في صالون العقاد.. فنحن كل يوم نعطيه عيوننا ليجلوها، وآذاننا وعقولنا وقلوبنا، وننظر ماذا يفعل بها..

تماما كما يقول أستاذنا الفيلسوف الوجودي مارتن هيدجر. فقد كان يصف علاقته بالحقيقة الكونية فيقول: إنها معبودتي، إنني أركع عند قدميها، وأحني لها رأسي وعقلي وأنتظر ماذا تجود به..

أحيانا أحس أنني في لحظة تفتيش.. فالأيدي تمتد إلى كل حواسي.. هذه الأيدي تتلمس كل أعماقي.. وتتأكد من استعدادي لهذه الرحلة الطويلة.. تماما كما يمتحن الذين يصعدون الجبال أو يغوصون في الماء.. فهي رحلة عقلية وجدانية طويلة عريضة.. ويجب أن نتأكد من سلامة أجهزة الرصد والذاكرة..

هل انشغلت تماما عن الاستمتاع بكل ما أسمع وأرى، واكتفيت بأن أرصد وأحلل وأدخر؟.. هل كنت في ذلك الوقت متفرجا؟.. نعم.. هل كنت في ذلك – في الأربعينات أثناء دراستي في الجامعة – حكما في مباراة ليس لها كأس ولا دوري؟ لا أظن أنني كنت كذلك فلم أكن قادرا على أن أكون طرفا في كل القضايا الفلسفية والأدبية والتربوية والسياسية التي كان يخوضها الأستاذ العقاد..

إنما كان يقوم بدور الحكم أناس آخرون أكبر سنا وأكثر تجربة وأقوى علاقة بالأستاذ.. أما الشعور المؤكد الذي لازمني فهو أن صالون العقاد قد امتلأ بالأحياء والأموات.. وبالأموات أكثر، من عباقرة الفلسفة الإنجليزية والأدب الإنجليزي وبقية الآداب الأخرى. فقد كانت ثقافة الأستاذ إنجليزية. والإنجليزية هي لغته الوحيدة. وإن كان البحث في اللغات يضطره أحيانا إلى قراءة مقارنة لأصول الكلمات. وكانت له طريقة لطيفة في نطق الكلمات الفرنسية. فهو لا يعرف كيف ينطقها. وكنت لا أجد في ذلك عيبا. فالأجانب لا يعرفون كيف ينطقون لغتنا. وكانت الكلمات الفرنسية التي يعرفها الأستاذ سليمة النطق صحيحة البناء. وكان حريصا جدا على أن يكون دقيقا في كل شيء.

وكنت من المتحمسين للفلسفة الألمانية والأدب والموسيقى واللغة..

وامتلأ صالون الأستاذ العقاد بكثير من الحيوانات أيضا. فهو يجد متعة في أن يقارن بين الحيوانات وبين تلاميذه أو أصدقائه الكبار. فكل واحد منه قد وجد له شبها بالحيوانات. ووجد لنفسه أيضا. هل كان يصف نفسه بأنه الزرافة ذات العنق الطويل؟.. إن المذكرات القليلة التي كتبتها واحتفظت بها منذ ذلك الوقت لا تجيب عن هذا السؤال.. ولكن أصبح صالون العقاد حديقة حيوان العقاد وكان كلما ذكر لنا ذلك تعالت ضحكاته. وكان لابد أن نفعل نحن كذلك – أو نجد أنفسنا ضاحكين معه.. هل كنا صداه؟.. إن المجاملة تقتضينا ذلك. ولا أظن أن كلمة «المجاملة» هي الكلمة.. إنما كنا نفعل ذلك دون أن نفكر.

وفي غيابه – أي عندما لا نكون في صالون العقاد – فقد كنا نجرب لعبة الحيوانات.. أي يطلق كل واحد منا على نفسه وعلى غيره اسم حيوان. وقد ذهبنا إلى أبعد من ذلك. فأطلقنا على أنفسنا أسماء حيوانات مختلفة في اليوم الواحد.. كان يصحو الواحد منا من نومه حمارا، ثم يصبح

حصانا ، وبعد ذلك جملا ، وأخيرا حنزيرا .. أو ينهض من نومه حمامة ، ثم يصير غرابا ، وفى الليل يكون بومة .. أو الإنسان المشتغل بالفلسفة قرد ، وبعد أن يتعمق فيها يصير قردا أعمى ، وقبل أن يموت يكون أعمى فقط : حمارا أو حصانا أو حنزيرا ..

وكنا نتذكر عبارة مشهورة تقول : إننى أفضل أن أكون سقراط الفقير على أن أكون روتشلد الخنزير ..

أى أننى أفضل الفلسفة مع الفقر ، على الثراء مع الجهل ولم يخطر على البال ونحن نصوغ أفكارنا أو نتركها للعقاد يصوغها ، أنه من الممكن أن يكون الغنى فيلسوفا أيضا . أو أن تكون المال فلسفة ..

ولكننا كنا نرى مع الأستاذ أن الفلسفة هى الثراء . وأن العقل قد وضعه الله على كتفينا تأكيدا لأن العقل هو أعلى وأغلى من كل شىء .. وذلك درس تعلمناه من الأستاذ : أنه ليس أعظم من الإنسان ، وليس أعظم من عقل الإنسان .. وأن الإنسان يستطيع أن يقف فى وجه السماء ، ويرفض هذا ويقبل ذاك ..

وكان الأستاذ العقاد يزلزل وجودنا عندما يغضب من الدنيا فيقول : ما هذا الكون ؟ .. ما هذه الدنيا ؟ .. أعطى المادة الأولية لهذا الكون وأنا أصنع لك واحدا أفضل منه !

وكنا نتصور أن السقف سوف يقع فوق رءوسنا .. أو ينهدم الكون لمثل هذه العبارة التى تنق فيها الغرور والغطرسة وعقدة العجز وضلال الغضب . من الذى يعطى الأستاذ هذه المادة الأولية : طين الكون أو عجينة الكائنات ؟ .. إن الذى لا يجد المادة الأولى التى يصنع منها الكون لعاجز تماما عن أن يفعل شيئا !

• • •

وقد حفلت حدة مثل هذه العبارات عند الأستاذ يوما بعد يوم ..

وعندما قامت الثورة المصرية . كان يضيق بكثير مما يقال .. أو مما يقوله الرئيس جمال عبد الناصر بعد ذلك . فيوم الاعتداء على الرئيس عبد الناصر كان يصرخ عبد الناصر قائلاً : أنا الذى علمتكم الكرامة .. وأنا الذى علمتكم العزة ..

وكان العقاد يقول : إن شعبا يسمع مثل هذه العبارة ولا يثور عليه ويشنقه فى مكانه . لشعب يستحق أن يحكمه ويدوسه بالنعال مثل هذا الرجل .. إنه عندما قام بثورته هذه ، وجد البيوت والشوارع وملايين الناس والأهرامات وصيحات الثوار قبله .. والجامعات ومئات الألوف من الكتب .. لقد سبقه إلى الوجود كل هؤلاء .. وسبقه إلى القاموس كلمات أخرى غير العزة والكرامة : الغرور والغطرسة .. مثل هذه الغطرسة ..

وعندما قرأ الأستاذ العقاد أن السيد كمال الدين حسين أصبح رئيسا للجنة الطاقة الذرية . ضمن وظائف أخرى كثيرة يقوم بها قال : يا مولانا إن الله لن يحاسبنى على ما أفعل .. إذ كيف يحاسبنى وقد خلقنى فى عصر كمال الدين حسين وجمال عبد الناصر ؟ !

وسمعت من الأستاذ عبارات فيها رائحة الإلحاد وطعم الرفض وشفاوة اللاعب الذى كلما جاءته الكرة ألقى بها خارج الملعب .. فليس لاعبا ماهرا من جعل الشبكة هى مقاعد المتفرجين ..

ولكن العقاد لاعب ماهر . ويعرف الشبكة ويعرف الأهداف . وهو حكم عظيم لأعقد مباريات الفكر الإنسانى . ولكنه كان يضيق باللاعبين والمتفرجين وقواعد اللعبة .. غير أن العقاد حتى عندما يعبث كان جادا ..

فاللعب له قواعد وله أصول وله قوانين . فعلى الرغم من أنه لعب . فهو نشاط مدروس . وفلسفة حركية . وكان الأستاذ يلهو جادا . ويعبث متفلسفا . وأعتقد أنه كان يضيق بنا أيضا . وكثيرا ما تصورت نفسى جالسا فى مقعده . وأطالع نفس الوجوه .. ثم ما هذه الوجوه ؟

انهم شباب بالقميص والبنطلون .. إنهم مساحات من الألوان البيضاء والصفراء والزرقاء تغطى مقاعد بيته المثلون . وتحجب الجدران ذات اللون الأزرق الباهت .. فالرءوس صغيرة والعيون لامعة .. كأنهم تماثيل نصفية فى متحف الشمع .. أما العقاد فقد جلس طويلا .. كأنه قد استقر واقفا على مقعده .. يرفع رأسه ويديه ويحرك عينيه .. ثم يزم شفتيه ، إن لم يكن هذا قرفا . فهو نوع من التعالى .. أو نوع من الإرهاق الفكرى . فلم يكن أمرا سهلا أن يظل يحملنا على كتفيه صاعدا هابطا .. ونحن إن لم نكن جثثا جامدة . فنحن أحياء لا ينطقون ..

• • •

لابد أن أشعر بالقرف لو جلست مكانه .. أما سبب قرفى فهو أن أظل أحدث وحدى . لا حوار . لا أحد يسألنى . لا أحد يقول لى شيئا . حتى لا أشعر بالوحدة أو العزلة أو الغربة .. ولكن من المؤكد أنه يجد متعة فى الكلام ، بقدر ما يجد متعة فى الاستماع . وكثيرا ما أحس الأستاذ أن صمتنا هو عظيم الاحترام لكلامه .. وأنه إذا كان الفهم الوحيد فقد كنا آذانه العشرين . ولم نكن هكذا مرتى ، إنما كنا أحياء ندخر هذا الكنز الفكرى فى أعمق أعماقنا .. ثم نروح ننشره ..

أكانت أحاديثه جلسات لتحضير الأرواح ؟ نعم كانت شيئا كذلك . فهو يقلب كتاب المرئى من العظماء . صفحة ونكتة وحكمة .. ثم يعيد ترتيب هذه الصفحات ، ويدور بنا وتدور معه رءوسنا .. وتمتلىء الغرفة الضيقة بالقديم والجديد ، والحى والميت ، والحيوانات والضحكات ..

أكان صالونا مصغرا للآلهة التى تحدثت عنها أساطير الإغريق ؟ كان كذلك . وكان الأستاذ يقوم بدور الإله فولكان أى الركان – الذى يشعل النار ويضع فيها الحديد . ويلين له الحديد سكاكين وسيوفا وسهاما ورماحا .. وكان يسلحنا العقاد بكل ذلك . ثم يطلب إلينا أن نمضى فى الحياة .

ولا أظن أننى انشققت سيق وخرجت من صالون العقاد أرهب الناس . إنما كنت أحس دائما أن صالون العقاد هو ثلاث غرف متداخلة بعضها فى بعض .. إنها : النار والمطهر والجنة التى وصفها لنا الشاعر الإيطالى دانتى الليجرى . فنحن ننقلب معه على النار ، ولكنه لا يحترق . ونتمرغ معه على المسامير ، ولكنه هو وحده الذى لا تنفذ المسامير إلى جلده .. حتى يتم تطهير النفس والعقل ، وأخيراً نطير معه إلى جنات الفلسفة والفن تجرى من تحتها أنهار الإعجاب والمتعة المؤكدة ..

• • •

هل حقا كنت سعيدا بذلك ؟ !

لا أظن أننى كنت فى ندوة الأستاذ ذلك الخطوط الذى يجىء إليه خفيف الوزن ، وأنزل السلالم طائرا .. إنما كنت أجىء خفيفا وأعود ثقيلا . مهموم الخاطر حزين القلب . أمشى إلى جوار الحائط ...ولو عدت إلى تصوير نفسى ذاهبا إلى الأستاذ لوجدتنى هكذا : أنزل من بيتى فى الزمالك .. ٣٨ شارع السلطان حسين .. البيت تملكه السيدة نعمت هانم يكن أخت عدلى باشا يكن .. وأنى يعمل عندها مديرا لنفايشها الزراعية إنه رجل شاعر رقيق .. ولم أفكر كثيرا فى الطريق الذى سلكه والذى الذى يحفظ القرآن ويرتله . ويحفظ الموشحات ويغنيها وينظمها أيضا .. ثم إنه لا يفهم فى الحساب .. لا يحسب ما يأخذ ولا يحسب ما يعطى حتى كاد يدخل السجن بسبب هذا الإهمال أو العجز عن الفهم أو التواكل على الله .. لولا أنه واحد من عباد الله الطيبين .. ولم أكن أقول لأنى أين أذهب .. فقد كنت أرى الذهاب إلى الأستاذ عيانة لأبى .. فقد كان أبى هو حبى الأول ، وجاء الأستاذ فأصبح حبى الثانى .. أو حبى الأول .. فقد وجدت رجلا أعظم عقلا من أبى .. وإن لم يكن أعظم منه قلبا .. ووجدت فى هذه الخيانة قرارا مستقلا .. فمع العقاد اتخذت أول قرار لتقرير المصير .. وقرأت بالعقاد ودراسة الفلسفة والتفوق فيها ، أن أنشق عن الطريق المرسوم لأن أكون شيئا ولا أدعى أن هذه العبارة الأخيرة صحيحة . أو وردت على رأسى فى ذلك الوقت . فلم أعرف بالضبط ما الذى أريد أن أكونه . ولا كيف أكون . ولا ما هو العمل الذى سوف يعول أمى وإخوتى بعد وفاة والدى . لم أفكر فى ذلك . وهذا غريب حقا . وقد تكفل واحد من إخوتى بالإنفاق على كتبى الجامعية . هل تضحية منه ؟ .. نعم . هل كان ذلك ضروريا ؟ .. لم يكن . فقد كان علىّ أن أعول نفسى . وحاولت ولم أوفق . لماذا ؟ .. لا أعرف . وكانت محاولتى الأولى عندما كنت طالبا فى المنصورة الثانوية .. ولا أعرف كيف إن سيدة طيبة قررت أن تتبناى . وبذلك توفر على أسرتى طعامى وشرابى . ومن الغريب أن هذا التبنى هو بداية أوجاعى المعدية والمعوية . فقد كنت أعيش مع السيدة وبين أولادها وعلى مقربة من حيث تسكن أمى وإخوتى .. آكل وأشرب وأنام بصورة مختلفة . فإذا ذهبت لزيارة أمى وإخوتى وجدت أنهم لا يأكلون مثل طعامى .. ولا يرتدون مثل ملابسى .. فكنت بعد ذلك كلما أكلت طعاما وأحسست أن إخوتى لا يجدونه ، تمردت معدتى وأمعائى .. وهربت إلى أمى وإخوتى . وكنت أعرف جيدا ما الذى يشعر به الأستاذ العقاد عندما يضع يده على الجانب الأيسر من بطنه .. إنه هو أيضا

منصور فهمي

د. لويس عوض

حسن البنا

يشكو من المصران الغليظ ومن المعدة . والمصران الغليظ من معالم المصريين . وأوجاعه الشديدة من ملامح المتمردين .. وجدت في وجع العقاد تقاربا . فقد أحسست أنني أنتسب إلى مدرسة المصران الغليظ التي عاش بها ومات أستاذنا العقاد ..

ولا أظن أنني كنت أفعل الألم عندما أضع يدي على جانبي الأيسر وأنا في طريقي إلى الأستاذ . ولكن كان في حياة والدي بعيدا عن إحوتي في المنصورة ما يجعلني أتلمس الوجع في هذا الجانب وفي ذلك الجانب .. ولكن لا أظن أنني كنت أتذكر هذا كله في طريقي إلى العقاد . حتى كلمة « طريق » هذه ليست في موضعها . فلم يكن هناك طريق إلى العقاد . فلم أكن أشعر به . إنما أجدني أمام بيت العقاد . وكنت أحاول في كل مرة أن أقاوم هذا الخداع الحسي – أي الإحساس باللهفة على الصالون الذي يجعلني أنسى الشعور بالزمان والمكان . فلا أدري كم من الوقت أنفقت . وأي طريق سلكت . لم أفلح في معرفة ذلك إلا بعد وقت طويل ..

ولم نكن نفهم معنى ما كتبه الأستاذ عن سلالم بيته . فلم نكن نحس بها . فقد كتب الأستاذ مرة عن كيف تقدمت به السن . فقال : « لقد كنت أصعد الدرج ثلاثا ثلاثا . وصعدته اثنتين اثنتين . وها أنذا أصعده واحدة واحدة . كنت أصعده وبياض شعري يتوارى في سواده . واليوم أصعده وسواد شعري يتوارى في بياضه »

ثم أجلس مع الآخرين . أو قبلهم . ولا أذكر أنني وجدت أحدا قد سبقني إلى صالون العقاد . فقد كنت أول الجالسين . وأحيانا ثانيهم ..

ولم أكن ركبت الطائرة ولا حتى الأتوبيس .. ولم أكن أعرف أنهم في الطائرة يربطون الحزام أثناء صعودها . ولم أكن أعرف أنهم في الأتوبيس يتعلقون من سقفه أيضا .. حتى لا يقعوا . وكنت أحتاج إلى ذلك في صالون العقاد . بل كنت أحتاج إلى أنابيب الأوكسجين أيضا .. هل كنت أحتاج إلى شيء آخر؟ .. نعم . كنت أحتاج إلى كثير من النوشادر أيضا ..

فقد توالت ضربات الأستاذ على أدمغتنا .. على دماغي أنا عندما كان يشيد بالأدب الإنجليزي والفلسفة الإنجليزية ولكنه يضيق بالفلسفة الألمانية . لا جهلا بها .. لكن تفضيلا لكل ما هو إنجليزي . وكان يقول : إن الأدب الإنجليزي هو أسلم أدب . لأن الإنجليز تجار بطبعهم . والتاجر أقدر الناس على فهم الناس . فالأدب الإنجليزي هو أدب الحياة .

ومن المؤكد عنده أن الشاعر شكسبير هو أعظم المواهب في التاريخ ..

أما الشاعر الألماني جيته فهو يرى أنه رجل عظيم . ولكنه ليس إنسانا عظيما . ولا ينسى العقاد ما فعله هذا الشاعر الألماني بالفيلسوف الشاب فيخته . فقد كان فيخته فيلسوفا متطرفا . ولكنه وطني . وكان الشاعر الألماني وزيرا للمعارف . ورأى في ثورة الشاب تمردا على النظام .. ففصله . وهذا قرار وزير . ولكنه ليس قرار شاعر كبير . ولذلك لم يره العقاد إنسانا كبيراً – ومعه حق .

وكنت غارقا في الفلسفة الألمانية والأدب والموسيقى .. ولم يكن العقاد كذلك .

فإن لم يكن هذا الذي يقوله الأستاذ محاولة عنيفة لتحويلنا . فهو بالفعل نقطة تحول .. فلم أستطع أن أسايره ..

● ● ●

وعند الموسيقى والفلسفة بدأت أتشقق على نفسي .. وأنشق على فلسفته ..

فقد كانت في حياة فكرية وفنية أخرى .. ولا أقول « حياة » .. فلم أعرف معنى هذه الكلمة أثناء الدراسة ولا بعدها بوقت طويل . فإذا كان صالون العقاد قد امتلأ بالأحياء والأموات . فقد كانت لنا في الجامعة صالونات أخرى هي التي نسميها المدرجات .. أو كانت الجامعة هي الحياة الأولى . وصالون العقاد هو الحياة الثانية .. أو ما بعد الحياة

في ذلك الوقت لم أكن أذهب إلى العقاد وحدي . إنما من حين إلى حين أعرض عليه بعض الشخصيات الأخرى .. كأنها العملات الذهبية وأعرضها عليه خلسة . وكان أحيانا ينظر إليها وأحيانا لا يفعل . فيقول : عبد الرحمن بدوي جاهل .. لويس عوض أجهل منه .. يا أخي لماذا لا تنظرون إلى صورة سارتر هذا وصورة ماركس .. وبدوي وعوض .. إنهم جميعا مشوهون ..

ولم أكن أراهم كذلك ..

وهذه نظرية أخرى عند الأستاذ : أن هناك تشابها بين أفكار الناس وأشكالهم .. ولذلك فحديقة حيوان العقاد ليست نكتة . إنما هي نظرية حقيقية ..

والأستاذ هنا يؤيد العالم الإيطالي لمبروزو . ويعلن ذلك كثيرا . فهذا العالم الإيطالي يرى أن كل العباقرة شواذ . أو أنهم مجانين .. ويرى أن المجرمين هم معالم معروفة . وأنه يكفي أن ننظر إلى واحد منهم لنعرف إن كان قاتلا أو لصا ..

ويقال إن أحد خصوم لمبروزو قد عرض عليه صورتين . وطلب إليه أن يعرف المجرم بينهما . فوضع يده على صورة أحد الأمراء . وقال : طبعا هذا هو اللص !

وظل لمبروزو طوال حياته يفسر ويبرر أن هذا الأمير إن لم يكن لصا الآن فسوف يكون . أو لعله كذلك دون أن ندري !

● ● ●

وكان العقاد في ذلك الوقت يهاجم الشيوعية والشيوعيين والوجودية والنازية . ولا يجد علاقا بينها : لأنها جميعا تدوس كرامة الإنسان . أو لا تقيم وزنا أو حجما لحرية الإنسان . فالشيوعية تجعل الإنسان حذاء للمجتمع . والنازية تجعل الشعب حذاء للحاكم . والوجودية تجعل الكون كله حذاء للإنسان . ويقول : ما الذي يساويه أي إنسان حتى يضع الكون كله في جزمته ؟ ! قل لي يا مولانا ..

و « مولانا » مفروض أنه أنا .. وما دمت واحدا من الموالي . فلا يحق لي أن أرد عليه ..

وكان د. لويس عوض يدرس لنا الأدب الإنجليزي . وكان يرأس جمعية اسمها « جمعية الحرامفون » – والحرامفون كلمة لم يعد أحد الآن يعرف لها معنى . ولذلك فلابد أن أقول : الحرامفون هو ذلك الجهاز البدائي الذي توضع فيه الاسطوانات الموسيقية .. أي أنه جهاز بدائي سابق على الريكوردر .. فحيث كنا نضع الاسطوانة نضع الآن الكاسيت .. وحيث نضع الآن البطارية . كنا ندير الحرامفون ونملؤه باليد كالساعات غير الأوتوماتيكية . وإذا كنت قد أطلت فلأن هذا الجهاز والجمعية قد انقرضا . ثم إنني أعرف أنا نعيش في عصر إذا سألت فيه طفلا : أين رأيت الأبريق ؟ .. أجابك : في التليفزيون !

وكان د. لويس عوض شيوعيا أو يساريا . ولم أكن أعرف معنى ذلك . ولكنه يختلف عن د. عبد الرحمن بدوي أستاذنا في الفلسفة الوجودية . وعندما بدأت أستعير عيني العقاد وأذنيه وموازينه .. كنت أجد د. لويس عوض خيفا قصيرا . أصلع الرأس . أحول مثل سارتر . يمشي كأنه يقفز . يتكلم مع أي أحد . ويجلس على الأرض ويأكل معنا ساندوتشات الفول . ويسمعنا بيتهوفن وموتسارت واشتراوس . ويحدثنا عن ذلك .. وكان أفراد جمعية الحرامفون من طلبة قسم الفلسفة بآداب القاهرة : محمود أمين العالم ومحمد شرف وعباس أحمد وبهيج نصار ومصطفى سويف ومحمد جعفر وبدر الديب .. أما عبد الرحمن الخميسي فمن قسم اللغة العربية .

وكانت للويس عوض قصيدة لا أعرف ماذا تقول . وكانت من الشعر الحر . يصف فيها غرام شابين . وينتهي هذا الغرام بأن يرتبط الاثنان بأن يضعا يديهما في « سميطة » . بدلا من أن يضع كل واحد منهما خاتما في إصبع الآخر .. ولكن لويس عوض شاء أن يجعل الرباط حبزا وعيشا !

وفى ذلك الوقت نشرت الصحف قصيدة لأحد الشيوعيين ، سمعتها من الأستاذ ، ولم أقرأها ، مطلعها : إلى الذين ينامون فرادى فى المستشفيات !

يقول العقاد : ما الذى يريده أن يحدث فى المستشفيات ؟ .. أن ينام الناس بعضهم فوق بعض .. وإذا خرجوا وضعوا أيديهم فى السميط .. أهذا كل مايرتبط به الآدميون ؟ ! ألا ترون فى هذا شذوذا وجنونا ؟

وكان يطلب إلينا أن نستعرض كل الشيوعيين فى صف واحد . ونتظر إليهم . سوف نجدهم جميعا من الشواذ جسميا وأخلاقيا . لأنه - كما يقول الأستاذ - لا يمكن لإنسان أن يرفض إنسانيته إلا إذا كان مختلا . وهم جميعا كذلك ..

فماركس فيلسوف الشيوعية كان رجلا محموماً بدنياً لاخلاق له . وكانت زوجته كذلك . وقد انتحرت اثنتان من بناته . واحدة منهما قد تزوجت عضوا فى الجمعية الوطنية الفرنسية ، واتفق الاثنان على أن ينتحرا فى اليوم الذى لا يجدان فيه الطعام . وكان يتفق عليهما وعلى كارل ماركس أيضا صديقه المليونير الشيوعى فريدريش انجلز . وانتحر الزوجان ، وبعد وفاتهما بساعة واحدة جاءتهما الفلوس .. منتهى الجنون الموروث عن الأب العبقرى الخبول ..

وأنظر إلى لويس عوض . فلا أجد شيئا من ذلك . بل إن لويس عوض مسئول عن تعديل مسار أفكارنا ونحن صغار . فقد كنا طيورا جارحة جائعة . ولكنه استطاع بالعقل والمنطق أن يجعلنا طيورا داجنة . كانت السحب أرضنا ، والسماء مسكننا .. فجعل الأرض أقرب والسماء أبعد .. لقد نزع الكثير من ريش أجنحتنا . حتى تعثرنا بالأرض .. وتعثرنا به واصطدمنا أيضا . ولكن الذى فعله لويس عوض ، هو نوع من « التشييء » - أى جعل الكثير من الأفكار شيئا ملموسا ، فنقبله بوضوح أو نرفضه بوضوح .

ولا أنسى محاضرة ألقاها لويس عوض فى قسم الفلسفة . فلم يكن بعيدا عن الفلسفة ، ولاكان طلبة الفلسفة بعيدين عنه . كان موضوعها : التفسير المادى للأدب ..

وسمعت ما لا يسرنى . ولكن ما لا أستطيع أن أنساه أما أستاذنا ومثلنا الأعلى فقد كان د . عبد الرحمن بدوى .

وكان عبد الرحمن بدوى ينطبق عليه الوصف الذى قاله الفيلسوف أرسطو عن الله . لقد قال أرسطو : إن الله خالق الكون وأدار له ظهره ..

أى وضع له القوانين ولم يعد ينشغل به . تماما كما تدير سيارتك وتتركها ..

وكان عبد الرحمن بدوى كذلك .. فهو أسمر اللون كبير الرأس . أصلع قليلا . وكانت له عينان سوداوان لامعتان . وكانت له شفتان مزمومتان دائما . وكان يرتدى بدلة زرقاء . عرفنا فيما بعد أنها الوحيدة لديه - لا فقرا لكن بخلا . وكان لونه قبل أزرق . وكانت كتبه كذلك : غلافها أزرق وورقها أزرق .. وكانت هذه الكتب رائحة متميزة . أو هكذا كان طعمها فى أفواهنا .. وكانت هذه الكتب أحجام واحدة :

نيتشه

د . طه حسين

د . محمد حسين هيكل

نيتشه وشوبنهور واشنجلر والفلسفة اليونانية .. وعندما زرته فى بيته ٩ شارع همدان بالجيزة . كانت له غرفة إلى جوار الباب . الغرفة معقلة دائما . وهذا واضح من رطوبة الهواء ورائحة الحبر على الحائط . وجدرانها زرقاء . وفى أحد أركانها تمثال نصف لفيلسوف الحضارة اوزفالد اشنجلر .. الذى يرى أن اللون البنفسجى هو أرق الألوان جميعها . وأن الإنسان لم يهتد إلى هذا اللون إلا متأخرا جدا .. وطبيعى أن يكون ذلك هو اللون المفضل عند د . بدوى .. ومن الخراب على المقاعد ، ومن الالتصاق الشديد للأبواب والنوافذ . ومن الصمت الكامل فى البيت . تحس أنه ليس هناك أحد . أو أن أحدا لا يدخل هذا البيت . أولا ينبغى له - فعلا لاينبغى . !

ولم يكن عبد الرحمن بدوى مثل لويس عوض هاشا باشا . فإذا لقيت لويس عوض توقف عن السير . دون أن يكون سبب لذلك . ولكنه مرتبط بالناس . وهذا الارتباط يجعله يتوقف فورا ويدخل فى حوار ..

أما عبد الرحمن بدوى فهو يمشى على عجل دائما . مندفع لا ينظر إلى أحد . وإذا نظر إليك فنظرة تقتحمك أو تكتسحك ، أى تذيبك تماما ليكون على راحته : ينظر إلى لا شىء .. لأنه لا شىء هناك .. لا أنت ولا غيرك .. وإذا حاولت أن تستوقفه لم يقف فى مواجهتك .. إنما يقف إلى جوارك ، وينظر إليك ببعض عينيه وبعض جسمه . ليس اجتماعيا ، ولا عنده أخوة ولا أبوة . ولا يعرف الحوار . وفى محاضراته كان يزور جاكتته ويبدأ فى الكلام ذهابا وجيئة بسرعة وعلينا أن نتابعه . وفى المحاضرة التالية يبدأ من حيث انتهى . لأنه قد ذاكر محاضراته تماما . واستعد لذلك .. وكما يدخل يخرج . لا حدث أحدا ولا أحد اقترب منه . ولكن كنا نعجب بعلمه الغزير ، ونرى أن عيوبه هى عيوب العلماء . وأن الفلاسفة الألمان المثاليين هم سكان الخيال ، عباد الشمس ، يتغطون بالسحاب ، وإذا صحوا ساروا على الحليد .. إنها القمم الباردة . إنها العظمة المعزلة . إنهم أنصاف الآلهة ..

وقد تغير رأى لويس عوض فى الأستاذ كثيرا . ولكن الأستاذ لم يغير رأيه لا فى لويس عوض ولا كل الأدباء والشعراء والفلاسفة الشيوعيين . فلويس عوض رأى بعد ذلك أن العقاد أستاذ عظيم . وأنه قدم الكثير من النظريات والاجتهادات والإبداع أيضا . وأن العقاد هو رائد التفكير الاشتراكى ، والمدافع الأول عنه وعن حرية إبداء الرأى المخالف . وأنه لا يعترض على أن يكون الإنسان شيوعيا ، وأن يعلن رأيه . فلا حدود لحرية الرأى ، ولكن الحدود يضعها المجتمع عند الممارسة والإحساس بالضرر العام . ولويس عوض عندما حاول هو الآخر أن يبحث عن جذوره الفلسفية .

قال : إن العقاد قد حرث له الأرض ، وسلامة موسى قد بذرها ، وطه حسين قد هذبها ..

أما عبد الرحمن بدوى فلم يغير رأيه فى الأستاذ ، ولا غير الأستاذ رأيه فى عبد الرحمن بدوى .. وكثيرا ما أعلن الاستاذ أنه لا يقرأ له . وليس من الضرورى ذلك . ويقول : إن الإنسان يمضى عشرات السنين من عمره دون أن يرى أحدا أعرج . فهل يخجل كثيرا ؟ طبعا لا يخجل .

ولكن عالما كبيرا ومفكرا جادا مثل عبد الرحمن بدوى ، ليس إنسانا أعرج . أو لم نكن نحن الطلبة الصغار نراه كذلك ..

● ● ●

ولم أكن قد رأيت طه حسين . وإن كنت قد استمعت إلى بعض محاضراته وقرأت بعض كتبه .

وكل ما أتذكره فى ذلك الوقت : أن مذاقه مختلف . وأنه إذا كان العقاد يبنى بيوته من الأخشاب المسلح فى وضح النهار ، فإن طه حسين يبنيها من أغصان الشجر عند الغروب ، وأحيانا فى ضوء القمر ..

فالعقاد هو المهندس المعمارى ، وطه حسين هو الخمايلى ..

ولا أظن أن وقتى قد اتسع فى ذلك الوقت لأنجح فى وضع الحدود بين هؤلاء العظماء .. فإن العظمة تأخذك وتسلبك قدرتك على التمييز .. إنها مثل الشمس تشعر تحتها بالدفء ، وأحيانا تهرب منها إلى الظل . ولكن من الصعب أن تنظر إليها لتراها أوضح .. ولم يكن مهما فى ذلك الوقت أن أرى الشموس أوضح ، إنما أن أشعر بالدفء . وكان الأستاذ كصانعى التماثيل يستخدم السكين فى تحديد معالم الشخصيات التى يحدثنا عنها ..

فكان الأستاذ يقول عن طه حسين : يسمونه عميد الأدب .. إنه ليس عميد الأدب .. إنه عمى الأدب !

وكان يقول إن د . محمد حسين هيكل باشا قد اصطدم به فى إحدى غرف المجمع اللغوى ، فقال له هيكل باشا :

- حاسب يا أستاذ .

– كيف أحاسب وأنا لا أراك ؟

وكان د. هيكل باشا قصير القامة !

● ● ●

وكانت

له تعليقات كثيرة جارحة . وقد اعتدنا عليها . وكنا نضحك لها فورا . ونفكر فيها بعد ذلك . مثلا .. كان يقول : لقد سألني كثير من الناس إن كانت المطربة « .... » ما تزال آنسة . وكان يجيب : قلت لهم أنا لا أعرف شخصيا . ولكن كل الذين تزوجوها قالوا إنها كذلك !

وكان يقول إن الشاعر الألماني هيرينش هينه ساحر . فقال مرة : إنه رأى تمثالا للشاعر الألماني جيته . ومن الغريب أن الشاعر يشبه تمثاله تماما ؟ !

وكان يقول : كل إنسان اسمه مرسي أكبر دليل على أن أباه جاهل تماما .

وقبل أن نسأل الأستاذ : لماذا ؟

كان يمضي قائلا : لأن هذا الأب قد أطلق اسم مرسي على ابنه تيمنا بالشيخ المرسي أبي العباس في الإسكندرية .. وهذا الشيخ اسمه المرسي لأنه ولد في مدينة مرسية بالأندلس .. وهو لذلك اسمه المرسي . أما الذي يسمي ابنه « مرسي » فلأي سبب .. إلا أن يكون جاهلا ؟ !

● ● ●

ولم يكن يشغلني طه حسين في ذلك الوقت إلا من بعيد .. فاسمه نذكره بالإعجاب والتقدير .. أو لابد أن تسبقه هالات من الإعجاب تبدو على الوجه وفي نبرة الصوت .. أو تجيء بعد ذكر اسمه .. ولتكون هذه الهالات ألقابا صامتة ملونة مثل الألقاب في ذلك الوقت : صاحب المقام الرفيع .. أو صاحب المعالي أو صاحب السمو التي تسبق أسماء الوزراء والأمراء ..

وكان طه حسين من أصحاب الجلالة الأدبية والفنية ..

ولم يكن الأستاذ من أصحاب هذه الهالات . إنما كانت تسبق اسم العقاد كلمات أخرى كثيرة لها شكل الدفاع عنه .. أو لها شكل التحدي به ..

كأن نقول مثلا : ولكن الأستاذ العقاد ..

أو : صحيح أن العقاد لم يحصل إلا على الشهادة الابتدائية ولكنه ..

أو : إن صفحة واحدة في كتاب للعقاد تعادل مئات الصفحات في كتاب لطه حسين ولكن طه حسين له شعبية وله نفوذ سياسي .. وهو عميد ومدير ووزير ، ولم يكن للعقاد شيء من ذلك كله .

أي أن العقاد هو رمز لتحدي أشياء كثيرة في آن واحد :

فليس من الضروري أن يكون الأديب أستاذا جامعيا ليكون شيئا ، وليس من الضروري أن يكون قد سافر إلى أركان الدنيا ليكون عالما بها ، وليس من الضروري أن يكون أعمى أو أعرج ليثير عطف الناس . فيضاف هذا العجز إلى حساب عظمته .. لأن الناس يرون أن من الصعب على الأعمى أن يكون شيئا هاما . فإذا تحدى هذا العجز وكان شيئا هاما . فهو عظيم لأسباب عديدة – وهي بعض العالي المفضلة عند الأستاذ ؟ !

أذكر

أن د. طه حسين قال في فيما بعد وأنفي منه ذلك : ما الذي حصل عليه العقاد الذي يعدمك ؟ .. أني حصلت على ست دكتوراه !

وكان العقاد قد مات قبل ذلك بأربعين يوما !

● ● ●

أما توفيق الحكيم فقد اتخذ له في صالون العقاد صورة كاريكاتورية . فكما أن العقاد تمثال للتحدي . وطه حسين صورة كئيبة للمشايخ الذين تعلموا في فرنسا . واختراع سياسي . فالحكيم شخصية طريفة فكاهية . وكانت فكاهات العقاد عن بخل توفيق الحكيم وحرصه على تدبير المال . وكان الأستاذ يرى أن الحكيم حريص على تثبيت صورته الفكاهية عند الناس .. فهو يطيل شعره وهو يرتدي البيريه . ويؤكد العقاد أنه أول من لبس البيريه وخلعه . ولكن الحكيم قد استعاره منه .. وكان الحكيم يمسك العصا في يده . وقد عرفت من الحكيم بعد ذلك : أن سبب اعتماده على العصا أنها تحمل خطوته منتظمة .. وهو يريدها منتظمة حتى لا ترتفع درجة حرارته فيسخن ويعرق . وهو يخاف من ذلك كله .

ثم إن الصحف في ذلك الوقت قد نشرت للأستاذ الحكيم صورة مع حمارة .. هذه الصورة نشرتها مجلة « الاثنين » .. وتبارى الكتاب في التعليق على هذه الصورة :

قال العقاد تعليقا على هذه الصورة : يا حمارة الحكيم اذهبي إلى حماره ..

وقال كامل الشناوي : هذا إعلان عن كتاب توفيق الحكيم الجديد .

وكتب مصطفى أمين : اختبر ذكاءك .. أيهما توفيق الحكيم ؟ !

وكان الأستاذ يتحدث عن عيوب أخلاقية في طه حسين والحكيم . فيقول إنهما لا يذهبان لحضور جلسات « المجمع اللغوي » ولكن يذهبان لحضور أية جلسات أخرى لأية هيئة أخرى !

توضيح هذه العبارة : أن الأستاذ يرى أنه ما دام الإنسان يتقاضى أجرا ثابتا من المجمع اللغوي أو المجلس الأعلى للفنون . فلابد أن يذهب . ولذلك لا يتخلف هو عن هذه الجلسات – إلا طه حسين والحكيم . أما اللجان الأخرى التي يتقاضى العضو فيها مكافأة كلما حضر . فإنه عادة لا يذهب – على عكس طه حسين والحكيم !

ولم

نفهم في ذلك الوقت مناقشة دارت حول رأي الأستاذ أحمد أمين في العقاد وطه حسين والحكيم ، وهيكل باشا – وهم جميعا قد ألفوا كتبا عن محمد عليه السلام .. فما هو الفرق بينهم جميعا ؟

قال أحمد أمين : إن هيكل باشا قد وقف إلى جوار الرسول يدافع عنه . وطه حسين قد وقف وراءه يؤرخ له . والعقاد قد وقف أمامه يرسم له الطريق ، والحكيم قد دار حوله يصفه من بعيد !

أحمد أمين

توفيق الحكيم

وكان إذا طلب إليه أحد منا أن يتحدث عن الحكيم فإنه يصف براعة الحكيم في الحوار بأنها نوع من الغزل بالحرير .. أو التريكو ..

وكلمة « التريكو » ليست من الكلمات الدقيقة عند الأستاذ . فقد أهدته واحدة من الفراشات اللائي درن حوله ثم احترقن بعيدا .. « بول أوفر » وصفه العقاد في إحدى قصائده . وقال إن في كل شكة إبرة : فكرة .

أي أن هذه المماثلة المعروفة الآن ، في كل مرة تشك الإبرة وتعقد الخيوط معا . تفكر في الأستاذ ، وتلك أن تتخيل ملايين الأفكار مع ملايين من شكات الإبر .. ولكن الذي لم يعرفه الأستاذ العقاد أن « التريكو » تقوم به المرأة – عادة – وهي تتفرج على التليفزيون وتقرقر الذب وتداعب كلبا صغيرا – كل ذلك في وقت واحد . فالتريكو نشاط آلي لا تفكير فيه !

وكان الفيلسوف العظيم أرسطو يعتقد أن عدد أسنان المرأة أقل من عدد أسنان الرجل ؟ !

فإن كان الأستاذ يقصد بهذا التشبيه أن الحكيم كان يفكر في كل شكة إبرة .. فهذا أقرب وصف لبراعة الحكيم !

ولم يكن توفيق الحكيم شاغلا في ذلك الوقت . فأنا دارس الفلسفة الباحث عن موسيقى الكون ومعمارية الذوق وجلال العقل الإنساني ..

وكان للأستاذ رأى فى الموسيق والغناء لم نكن نفهمه بوضوح ..

فهو يرى أن الأستاذ محمد عبد الوهاب له صوت جميل وأداء جميل أيضا . ولكن محمد عبد الوهاب لم يتغير . فجميع أغانه متشابهة ، والفرق بين اللحن الحزين واللحن المرح هو سرعة دوران الاسطوانة فى الجراموفون أو الفونوغراف – أرجو أن تعود إلى أول المقال لتعرف معنى هذه الكلمة التى اقترحت – فإذا أدرنا الاسطوانة بسرعة ، كان اللحن مرحا ، وإذا أدرناها ببطء كان اللحن حزينا . وكان يضرب لنا مثلا بأغنية : يا عزيز عيى وأنا بدى أروح بلدى ..

وكان يغنيها بسرعة وعلى مهل ليدلل على وجهة نظره ..

وعرفنا فيما بعد أن الأستاذ محمد عبد الوهاب لم يشأ أن يغنى للعقاد واحدة من قصائده .. بينما كانت السيدة نادرة هى الوحيدة التى غنت له !

● ● ●

وتشجعت

مرة فذكرت له أن الذى يحاضرنى فى علم الجمال ، أو فلسفة الفن ، هو : منصور باشا فهمى ..

فضحك العقاد طويلا حتى تراجع إلى الوراء .. ثم عاد يستأنف الضحك واقفا !

قال : يا مولانا هذا رجل جاهل ..

وفى ذلك الوقت كنت طالب الامتياز الوحيد فى قسم الفلسفة . ولذلك كان لى أساتذة إضافيون : منصور باشا فهمى يدرس لى علم الجمال ، والأستاذ اليونانى بريستيانى يعلمنى : المجتمعات البدائية وقبائل الكيس كيز ، والسيدة برج تعلمنى اللغة الألمانية .

وقلت للأستاذ : أنا الطالب الوحيد ..

فانفجرت شهيته للضحك أكثر : وبذلك انحصر ضرره فيك .. أنت الآن موبوء يا مولانا !

وعاد يضحكنا على منصور باشا فهمى فقال وهو يختلفان فى المجمع على تعريف الزمان والأبدية .. فقلت إن الزمن ضد الأبدية .. لأن الزمن محدود . والأبدية غير محدودة . هل تعرف ماذا قال أساتذك منصور فهمى هذا؟ .. قال : إن « الزمن » هو الوقت المحدود . أما « الزمان » فهو الوقت غير المحدود !

وضحك العقاد وضحك حتى امتلأت عيناه بالدموع .

وقال لمنصور باشا فهمى : قل لى يا دكتور إذا كان الزمن هو الوقت المحدود ، والزمان هو الوقت غير المحدود ، فكم تقترح أن نمد حرف الألف الذى يفرق بين الزمن والزمان ؟ .. كيف نمدها فى الكتب ؟ .. كم يكون طولها ؟

وتوقف العقاد فجأة وانطفأت كل الألوان فى وجهه وانزل الستار ووقف ليتلقى بحكم الإعدام فى هدوء قائلا : انه جاهل يا مولانا !

ولم أشاركه هذه النهاية الحزينة لأحد أساتذتى ..

وأذكر أنى اختلفت مع د . منصور باشا فهمى فى تعريف بعض الكلمات الفلسفية ، فاقترح أن أبعث بخطاب إليه على

الآنسة مى

عنوانه بالمجمع اللغوى لمناقشتها وإقرارها هناك أما الكلمات فهى : الفرد والفردية ومذهب الفردية والفردانية ، والانفراد والانفرادية والتفرد والتفردية .. إلخ .

وبعثت بالخطاب . ولم أعلم بعد ذلك أن أحدا ناقش هذه الكلمات ، ولكن عندما لاحظت أن أساتذى منصور فهمى باشا لم يحاضرنى فى شىء محدد ، اقترحت عليه أن يكون لدينا نص نناقشه . فترجمت كتابا اسمه « الخلاصة فى علم الجمال » لكاتب فرنسى اسمه ربنيه لالو .. وأتيت بهذا الكتاب وجعلنا ندرسه معا .. وكان منصور باشا فهمى يحاضر من هذا الكتاب فى الإذاعة . ويوضحه ويعارضه أيضا ..

وتوقفنا طويلا عند معانى الكلمات وأصولها . وتساءل هو : إن كانت هناك علاقة بين الجمال والجمل – حيوان الجمل . وإن كان العرب يجدون المثل الأعلى للجمال فى هذه الحيوانات .. وإن كان من الأفضل أن نطلق كلمة « الحسن » بدلا من الجمال ، فنقول « علم الحسن » . لأن الكلمة الأوروبية لعلم الجمال هى أقرب إلى علم الحسن ..

وطلب منى أن أبحث عن ذلك ..

وكانت هذه أول علاقة لى باللغة العبرية ، فقد قيل لى إن خير من يدلنى على ذلك هو د . فؤاد حسنين .. وهو الآخر يمشى بسرعة مثل عبد الرحمن بدوى ، ويمشى قفزا مثل لويس عوض .. وعلى الرغم من أنه تعلم فى ألمانيا ومتزوج من ألمانية فهو يتحدث باللهجة الصعيدية مثل أساتذنا د . أحمد بدوى مؤرخ المصريات الكبير الذى لم يترك فجته الصعيدية ..

و د . فؤاد حسنين يرحمه الله صعيدى من أسوان .. ووجدته يمشى أو يجرى بين كليتى الحقوق والآداب . ولما استوقفته وقدمت له نفسى .. قال كلاما لم أفهمه فى ذلك الوقت ، ولكن عندما أعدت عليه هذا السؤال بعد عشرين عاما عرفت أن السؤال معقول ومقبول ، وأنه فى كثير من اللغات يستمدون الجمال من حيواناتهم وأشجارهم . وكان د . فؤاد حسنين يعرف عشرين لغة – أكثرها من اللغات السامية والحامية التى اقترحت .

وقيل لى فى ذلك الوقت : اذهب إلى المستشرق الألمانى باول كراوس !

وكان أستاذا ألمانيا يوغوسلافيا يلقى محاضرات عن ابن المقفع وأبى حيان التوحيدى وجابر بن حيان وابن الهيثم .

وأعجبت بهذا الرجل وتتلمذت عليه ادرس اليونانية القديمة والعبرية ، وأقارن بين أصول الكلمات ، وكان ذلك أول أستاذ يهودى أراه فى حياتى ..

وأذكر أنه حزن كثيرا جدا عند نهاية العام ، عندما طلب إلى أن أحضر فى اليوم التالى للامتحان .. وفوجىء الرجل بأننى لست من طلبته . إنما أنا أجىء لسماع محاضراته متطوعا إعجابا به . أما تلاميذه فهم لا يحضرون عادة ، لأن هذا العلم الذى يدرسه لهم اختيارى ، وليس من الضرورى أن يمتحنوا فيه !

ووضع باول كراوس أصابعى كلها على أماكن كثيرة من فقه اللغات السامية والأوروبية .. وكان أول من دلنى على المعانى الأصلية للكلمات .. وأن اللغة لها عبقرية . وأنه يجرى على الكلمات من تغيير ، ما يجرى على الناس ، فاللغة وسيلة مواصلات ، وقد تطورت وسائل المواصلات .. أو إن اللغة هى الزى الذى يبرز معالمنا ، أو يخفيها ، وقد تطورت الأزياء : الأزياء التى تبرز الصدور وتحق الأرداف ..

● ● ●

ولما

نقلت للأستاذ مناقشاتنا فى « علم الجمال » أفاض فى ذلك ، وكان رائعا حقا فهو شاعر رقيق حكيم . وهو ذواقة للجمال ، جمال المرأة والطبيعة والموسيقى وفن الكلام والرسم والنحت والتخيل والغناء .. وكان من أحلام العقاد أن يؤلف كتابا عن « فلسفة الجمال » ولكنه لم يفعل .

وللعقاد آراء كثيرة فى الجمال والدلال والحس والحسن . ولكن لم يتسع وقته أو عمره ليكمل نظريته الشاملة لكل ذلك .

بل حدث أن بعث إليه الأستاذ مصطفى صادق الرافعى بكتاب له بعنوان « رسائل الأحزان » .. فنظر إليه العقاد وقال : لا .. لن أتجاوز غلاف هذا الكتاب !

لماذا ؟ .. لأن تحت العنوان سطرا يقول : إنه دراسة فى فلسفة الجمال . وكان العقاد مشغولا بذلك . فلم يشأ أن يقرأ فيتأثر بما كتب مصطفى صادق الرافعى .

فكان الأستاذ يقول فى ذلك الوقت : إن الجمال هو الحرية .. فالجسم الجميل هو الجسم الذى تمشى فيه الحياة حرة ، فلا تتوقف عند الصدر أو عند الأرداف .. إنما تمشى الحياة حرة دون أن يوقفها شىء .. والصوت الجميل هو الذى لا ينحاش فى الحلق .. والبشرة الجميلة هى التى تمشى على نعومتها الأصابع دون أن تتوقف أو تتعثر .

وعندما وصف العقاد جبهة الأديبة مى زيادة قال : إنها جبهة حرة !

أى فى منتهى الجمال ..

وفى ذلك الوقت ترجم زميلان فى قسم الفلسفة ، سوريان ، كتاب « خلاصة علم الجمال » للفيلسوف الإيطالى بندتو كروتشه . الزميلان هما المرحوم سامى الدروبى وبديع الكسم .

وأذكر بعد ذلك بوقت طويل أننى سافرت إلى نابلى فى إيطاليا . واتجهت إلى بيت الفيلسوف الإيطالى بندتو كروتشه الذى رفض أن يكون أول رئيس جمهورية لإيطاليا بعد موسوليى . وقابلت ابنته وقدمت لها نفسى ، ولم أكن شيئا . ولكن كنت أحد الدارسين للفلسفة أيضا . وحدثتها كثيرا . ولكن الذى استوقفها أننى قلت لها إننى قرأت كتاب والدها « علم الجمال » وإننى أختلف معه ، فأنا أرى أن الجمال هو الحرية – ولم يكن هذا رأيى كما تعرف .

وسكتت ابنة الفيلسوف فى أدب وصبر ومجاملة ، وقالت :

لكن هذا رأى والدى أيضا ، فهو يرى أن التاريخ كله ليس إلا الحرية .. وكل ما يفعله الإنسان فى تاريخه هو حرصه على أن يكون نصيبه من الحرية أكثر . وكثيرا ما أكلت حرية الفرد لمواجهة حريات الآخرين . وهنا تصبح الحرية قبيحة . ويصبح الحكم بشعا !

وبسرعة قلت لها معتذرا ومتقبلا هذه الإهانة : ولكن الحقيقة ليس هذا رأيى ، إنما هو رأى لأستاذ عظيم فى مصر ، وأنا لم أحسن التعبير عنه ..

ووجدت فى انتحال رأى الأستاذ عقوبة فورية ! وللتاريخ وللحقيقة فإن رأى الأستاذ فى الخيال والحرية ليس مأخوذا عن هذا الفيلسوف ، إنما هو رأيه هو واجتهاده هو .. ولكن ابنة الفيلسوف ترى فى والدها أنه بداية ونهاية كل شىء ، وهى معذورة فى ذلك !

وعندما أخبرتها أن كتاب والدها قد ترجم إلى اللغة العربية ، أمسكت ورقة وقلما ، وسألتنى عن اسم المترجم واسم الناشر . ولم أكن أعرف السبب فى ذلك الوقت ، وفيما بعد عرفت أنها تريد أن تحصل على نصيبها من حق الأداء العلنى . ولا أظن أنها حصلت على شىء من ذلك ، ولا أحد من الذين ترجمنا أعمالهم فى مصر !

وكانت هذه المرة الأولى التى أسمع فيها عن حق الأداء وعن حق المؤلف فى نصيبه من بيع أفكاره فى أية لغة أخرى !

● ● ●

● ● ●

ويكون الأستاذ فى أشد حالات الغضب والعنف عندما يتحدث عن السامة فى مصر ، فهو يمسح بهم الأرض — أو السقف ، فقد كان سقف الصالون لا يختلف كثيرا عن الأرض فى نظافته واختفاء اللون منه ..

ولا أدعى أننى كنت أعرف فى ذلك الوقت سببا لكل ذلك ، عدا ما يقوله عن سعد زغلول ، فهو أعظم السياسيين عنده . ولذلك استحق من الأستاذ أروع كتبه فى فلسفة التاريخ .. والأستاذ لا يتعب من الكلام عن رجلين : سعد زغلول وهتلر .. أما الأول فيحترمه كثيرا جدا . والثانى يشتمه كثيرا جدا .

● ● ●

والأستاذ هو أول من قال لنا أثناء انتصارات القوات النازية .. إن هزيمة هتلر محتومة .. وكانت الأسباب التى يقدمها كثيرة . ولم يكن أحد يرى رأيه . وكان ذلك يضاعف تمسك العقاد بفلسفته .. وكان يقول : لو أن ألف أعمى قالوا إن الشمس غير موجودة ، وقال واحد مبصر إنها ليست كذلك ، فهل هو على خطأ وهم على صواب ؟ ..

ويقول : إن الناس ينظرون إلى ما أنظر ، ولكنهم لا يرون ما أرى !

والعبارة ليست للأستاذ ، ولكنها مشهورة وتناسب المعنى الذى يريده . ولكنه يوضح هذه العبارة أحسن وأجمل فيقول : إن الذى يقول عن هتلر إنه سوف يكسب هذه الحرب . فإنه يحكم على ذلك بالحدس .. أى أنه يراه يتقدم فيقول إنه سوف يتقدم إلى النصر التام فى النهاية .. فهو إنسان ينظر .. أو هو إنسان يتحسس التاريخ بأصابعه .. ولكن الذى يرى هتلر يتقدم وينتصر ، فيقول إنه سوف ينهزم حتما . فهو لا يتحسس التاريخ ، إنما هو يرى حتمية التاريخ . إنه يسق هتلر ويقف فى مواجهته ويقول : ليس من الطبيعى أن ينتصر فى النهاية .. بل هزيمته مؤكدة !

● ● ●

ومثل هذا المنطق فى دراسة التاريخ وتحليل شخصياته هو أسلوب العقاد فى سلسلة « العبقريات » التى كتبها . وفى دراساته لابن الرومى وأبى نواس وشاعر الغزل وسعد زغلول وهتلر فى الميزان ..

بل هو أسلوب حياته ، وأسلوب فكره .. فحياته هى فكره الذى تقرؤه ، وفكره هو حياته التى تراها .

وعندما قلنا له مرة : إن أحد الزملاء قد باع أرضه ليتفق منها على تعليم إخوته ..

سألنا : وهل يتعلم هو أيضا ؟

قلنا : لا

قال : كيف يضحى من أجل أن يتعلم إخوته ، ثم يضحى بتعليمه لنفسه ؟ .. إنه جاهل يتباهى بعلم غيره ، ويتقاضى ثمنا لذلك عطف الناس عليه . فقولوا له إن الأستاذ يصفه بأنه حمار .. إلا قليلا !

فلما دخل المدرسة . فرحنا لذلك ، وقلنا للأستاذ : لقد استمع إلى نصيحتك يا أستاذ ودخل المدرسة .

فسألنا بسرعة : وكم عمره ؟

قلنا : فى الخمسين ..

قال : قولوا له إن الأستاذ يقول لك : الآن قد اكتملت حمارا !

وغير ذلك كثير مما كان يهزنا من أعماقنا .. أو يجعل أعماقنا جلدا نحتمى به من وخز النقد وسياط المنطق .. ولم يكن الأستاذ يدرى بذلك ، إنما كنا نتوجع فى صمت .. ثم نأوى إلى عقائدنا الدينية والفلسفية نعتصم من عواصف العقاد ..

● ● ●

وفى يوم فاجأنى الأستاذ بهذا السؤال المباشر الذى أربكنى : وكيف يلتقى الوجوديون والإخوان المسلمون ؟

إذن لقد عرف أننى من جماعة الإخوان المسلمين فى إعابة .. إذن لقد أصبحت هدفا لرصاصتين خرجتا فى وقت واحد .. ومطلوب منى أن أرد بسرعة : كيف أوفق بين الشيخ حسن البنا والفلاسفة الوجوديين الملحدين والمؤمنين ؟ .. وما الذى أجده فى الإخوان مشكلا للوجودية ؟ .. أو ما الذى أجده فى الوجودية متمشيا مع الإخوان المسلمين ؟ ..

ثم أنقذنى هو من ورطتى هذه فقال هو الإجابة العنيفة : لابد أنك وجدت شيئا ما بين البنا والبدوى والعوض — أى لويس عوض — فمع ثلاثتهم متحاورين . ثم قف بعيدا عنهم واحكم عليهم .. هنا فقط سوف تجد أن نظرية لمبروزو فى الشذوذ صحيحة مائة فى المائة ..

واستطعت أن أضعهم أمامى فعلا وهو يحدثنى . وتجرأت على أن أنشغل عن كل ما يقول وقارنت بين ثلاثتهم .. فلم أجد تشابها .. إن ثلاثتهم ثوار محتفلون .. اثنان سياسيان ، والثالث ليس سياسيا هو عبد الرحمن بدوى ..

ثم أفقت من استغراق فى هذه المقارنة السريعة لأجد الأستاذ يقول : القاعدة واحدة يا مولانا .. من يأخذ منك حريتك فهو لص .. سواء كان يضع على رأسه تاجا من الذهب أو تاجا من الشوك أو عمامة بيضاء أو سوداء .. أو تاجا من السمبط والبيض !

● ● ●

● ● ●

فما الذى أبقاه لنا الأستاذ من تماثيل العظماء ولوحاتهم التى علقناها على جدران حياتنا ؟ ..

ما من أحد لم يرمه بحجر .. ما من أحد إلا وضعه مقلوبا .. ثم يؤكد لنا بالمنطق والحجة القوية : أن الحجارة لا يقبلها على هؤلاء الناس ، إنهم هم الذين يحذبون الحجارة إليهم ، لأنهم يستحقون الرجم .. وأن صورهم ليست مقلوبة ، إنما هى مشوهة ، وأن هذا قدرهم الطبيعى .

ثم يقول : « والغريب ألا يكونوا كذلك » — وهذه من أحب الجمل عند الأستاذ . ونجدها كثيرا فى حديثه عن التاريخ والعظماء والعباقرة . فهو يراهم جميعا « ضرورة منطقية » و « حتمية تاريخية » ومن الغريب ألا يكونوا كما كانوا !

فهل الأستاذ قد هدم أصنامنا ، وأسقط علينا معابدنا ؟ .. وربما حدث ذلك لبعض أعمدتنا الفكرية .

ولكن الأستاذ لم يكن شمشون الجبار ، الذى هدم المعبد عليه وعلى أعدائه ..

ولكن أعظم ما أعطانا الأستاذ : أنفسنا ..

« وفى أنفسكم أفلا تبصرون » — صدق الله العظيم ..

● ● ●

كان سقراط يبدأ التفكير بأن يعرف الإنسان ..

وكنا نتعلم من الفيلسوف ديكارت أن نشك قبل أن نتأكد ، وكان الفيلسوف الغزالى يهزنا بأصغر كتبه التى أسماها أقصد كتابه : « المنقذ من الضلال » .

هل كان ضلالا ما كنا فيه ؟ .. نعم .

أهو ضلال الذين لم يجدوا شيئا أو أحدا ؟ .. لا .. بل كان ضلال الذين تكاثرت حولهم الأشياء والعلاقات والمبادىء والعظماء .. ثم كانت أيديهم قصيرة وعقولهم قاصرة .

ولكن شيئا آخر قد أعطانا الأستاذ : ألا نهاب العظماء .. فليس أحد عظيما جدا ، وليس أحد صغيرا جدا — فى العظيم صغار ، وفى الصغير عظمة .. والشمس نفسها فيها بقع سوداء والذرة الضئيلة إذا انشطرت تهدم جبلا !

● ● ●

وقبل أن تموت الأستاذ جلست إلى جواره على سريره أقول له : يا أستاذ كيف تفسر لنا أن رجلا مثلك لديه أحدث كتاب عن الصواريخ . وعنده أول وابور جاز دخل مصر ؟ !

ولم يقل كلاما مقنعا .. فالذى حمل على كتفيه جهازا جبارا مثل عقل الأستاذ ، لا يهمه كثيرا ما الذى يكون تحت قدميه .. أو فى قدميه !

العدد القادم
الحلقة الثالثة